

القدوة والقائد

الكلمة التي ألقاها الزميل يوسف الشاذلي في
احتفال البيت بعيد المولد النبوي الشريف

هكذا شب محمد في هذه الحياة الشاقة المتقلبة ، وزاول في حداثته رعي الغنم فزاده هذا العمل فهما وسعيا ثم مارس التجارة فكسب منها خبرة واسعة وربحاً طائلاً ، وحمل رسالة ربه فبات في سبيلها مضطهداً معذباً . ثم قاد الجيوش فخرج من المعارك ظاهراً منتصراً .

هذا هو محمد نشأ في ضيق من العيش وحرمان من الأيون ثم تقبل عليه الدنيا بخيرها ونعيمها ويتزوج من امرأة ذات منصب وجمال على جانب واسع من الثروة والذكاء فيزهد في الدنيا ويعرف أن المادة ليست كل شيء ، فما وضع يده على تلك الثروة الطائلة واستسلم للراحة المادية ، ولم يلج مجالس الحى حيث اللهو والمجون ولكنه نأى عن مكة إلى غار حراء يفكر في هذه الحياة الزائلة ، ويتأمل في أمره وخالقه حتى أذن الله له أن يبصر الناس بالحق ويهديهم سواء السبيل ، فخرج إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فلم يجد منهم إلا نفوراً وعصياناً ، ولم يزدحم دعاؤه إلا تعتاً واستكباراً . ولكن محمداً لم ييأس من دعوتهم ولم يتسلل إليه الملل والضجر من هدايتهم ، ولم يقابل الأذى بالأذى والعدوان بمثله ، بل وجد في موقفهم هذا حافزاً قوياً يصقل وجدانه ويشحن قريحته ويرهف حسه فقال قوله المشهورة (اللهم اهد قومي فانهم لا يدلون) هذا هو النبي محمد الذي ظهر في جو مكفهر مليء بالعوائق والصعاب ، مخوف بالأحداث والخطوب ، فألف بين قلوب تملؤها الغلظة والحقد على بعضها البعض ، وقضى على أصنام كانت تعبد وتذبح لها القرابين في المواسم والأعياد وأودع العالم شريعة السكال والخلود ، هذه الشريعة التي تعالج على أهدى سبيل كثيراً من المسائل العلمية والاجتماعية والتشريعية ؛ وقضى على الفروق الجنسية فالتناس في الدين سواء ، واسمعوا المفكر الأمريكي فاندنبرغ وهو يصف حالة الرقيق في الإسلام لاحالة الجنس

اجتمع أهل البيت يتجاذبون أطراف الحديث في أمر شغل بالهم ، وقض عليهم راحتهم واطمئنانهم ، وهم بين اليأس والرجاء ، وبين السعادة والشقاء ، وكانت آمنة بنت وهب أشدهم قلقاً وحيرة لأنها تنتظر كما ينتظر الجميع أوبة زوجها عبدالله من الشام ، وهما في ترقبه بفارغ الصبر وقد طال بها الانتظار ، وانقطعت عنها الأخبار . وهي لا تعرف ماذا تفعل إنها تحس في قرارة نفسها بشيء جميل يؤنسها ويحزنها في آن واحد ، تريد أن تزف إلى زوجها بشرى حملها بولده ، هذه البشري التي لاشك أنها ستلجج فؤاده ، وتملأ قلبه سروراً وسعادة ولكن أين الزوج الحبيب ومتى يعود؟ لاشك أنه قد ظهر في الأفق مالم يتوقع وحدث ما ليس بالحسبان وهذا هو الطارق يحمل خبر وفاته في يثرب فزاع البصر وجل الخطب وانقطع الأمل ، ووقع هذا الخبر موقع الصاعقة على آمنة ، فانطوت على نفسها مكلومة القلب مهيضة الجناح ، وكل عزائها في هذا الجنين الذي لا تشعر منه ما يشعر به النسوة من آلام الحمل ومتاعبه ، وفي ساعة أرخى الليل فيها سدوله ، وشمل الكون السكون والهدوء أشرق ذلك الطفل الذي وجدت فيه العزاء عن فارقه .

خرج هذا الطفل إلى عالم الوجود يتيم الأب ، ترأمة أمه آمنة ، وبكلاء جده عبد المطلب ، وترعاه مرضعته حليلة . وعاش في البادية فكان لها أثر بعيد في تكوينه الشخصي ، ومضت على هذه الحياة الوداعة ست سنوات فجع بعدها الصبي بموت أمه آمنة فأصبح يعاني آلام الوحدة واليتم ، ولكن الله الذي حرمه عطف الأب وحنان الأم ملأ قلوباً بالرحمة والرأفة عليه ، وهذا جده عبد المطلب يحنو عليه ويصبح له أباً رحيماً ، بيد أن هذا العطف انقطع عنه في السنة التاسعة من عمره بعد موت جده وكان من الطبيعي أن يزداد شعوره باليتم والعزلة ولكنه وجد في عمه أبي طالب نعم الولي ونعم النصير .

الأسود الذى يتمتع بكامل حقوقه الفردية والاجتماعية .
 يقول : « لقد وضع للرقيق فى الإسلام قواعد كثيرة تدل
 على ما كان ينطوى عليه الرسول وأتباعه من الشعور

والإنسانى النبيل ، ففيها
 تجد من محامد الاسلام
 ما يناقض كل المناقضة
 الأساليب التى كانت
 تتخذها إلى عهد قريب
 شعوب تدعى أنها تقود
 مواكب الحضارة فى
 الحياة .
 هذه تعاليم الرسول
 الكريم الذى كتب فى
 حياته كثير من العرب
 والافرنج ، ودون عنه
 فى كتب التاريخ كثير من
 الشرقيين والمستشرقين ،
 منوهين بإنسانيته وديانته
 وأصول تعاليمه التى عينت
 للناس حقوقهم ووضعت
 لهم واجباتهم ، فلا غرو
 إذا كان الجميع يشيرون
 بعظمته وعبقريته لأن
 دعوته صدرت من مكان
 يسمو عن متناول
 إدراكنا ، وتعاليمه جاءت
 من مصدر أرفع من أن
 تدركه أفهامنا .
 وخليق بالامة العربية
 وهى تعاني فى هذه الظروف
 العvisية أخطر محنة حلت
 بها أن تستمد من حياة رسوله

مالقيصر ومالله . . .

الله الذى وهبنا الحياة ، وخلق لنا هذا العالم العريض
 لترتع فيه أو نجهد فيه ، هيا لكل منا مجاله الذى ينشط
 فيه ، ومحيطه الذى يجاهد فيه ، ونحن فى طلبنا للعيش
 نسير فى سبيل نختارها لأنفسنا أحياناً وتدفعنا إليها زحمة
 الحياة أحياناً أخرى . . وكيفما كان ما نبلغه من نجاح فإننا
 نحس أننا تعبنا فى الوصول إليه ، بالرغم من أن هذا التعب
 هو سر السعادة التى يتلصصها الإنسان ، لأن النجاح لا يبدو
 ذا بال إلا إذا استخلص استخلاصاً فى زحمة الحياة ، وهو
 يبدو أكثر رونقاً لنا إذا كنا قد استفردنا بالوصول
 إليه . .

ولكن من الناس من لا يأبه بسعادة الآخرين أو
 استقلالهم ، لأن سعادته تتجلى فى أن يدس أنفه فى أعمال
 الناس ، غير مبال بما يسببه لهم من متاعب ومنغصات . .
 وأهم صفات هؤلاء أن يدعوا أنهم هم أهل العلم وأن العلم
 لم يترك باباً غير بابهم ، فلم الحق بالتدخل فى شئون
 الناس بالنقد أحياناً ونصائح أشنع من النقد أحياناً
 أخرى . والنصيحة الخاصة أمر لا ينكره عاقل ، إلا
 أن الاخلاص لا يحوم حول هؤلاء ولا يحط فى ديارهم
 لأن أهم عناصر النصيحة أن تكون الغاية منها نفع المنصوح
 بينما هى عند هؤلاء ليست إلا وسيلة لإظهار علمهم
 بيوطن الأمور .

وترى هؤلاء يتصدون لكل مشكلة طارئة فى ثياب
 العالمين بها الحيرين بحلها ، ويتناولون فى أحاديثهم كل
 معضلة محاولين ببعض الألفاظ المحفوظة أن يمدعوا الناس
 عن جبهتهم بها متظاهرين بأنهم من تفاصيلها وأسبابها
 وتنتائجها على علم مكين . . فإذا ما تكشف لبعض الناس
 زيفهم لم يعوزهم أن يجدوا من غيرهم مرتعاً لخوايتهم يضربون
 فيه على طيلهم الأجوف لى يطربوا من صوته وهو
 يدوى فى أرجاء نفوسهم الخاوية . . .

يا أصحاب البصائر ، دعوا مالقيصر لقيصر ومالله لله .
 الكويت

ت